

الفصل الثاني

الإطار النظري للدراسة

يتناول هذا الفصل الإطار النظري الذي تستند إليه الدراسة في بحثها لأثر استخدام مواقع التواصل الاجتماعي على الهوية الثقافية للمغتربين العرب في المملكة العربية السعودية. وتتمحور مقارنة هذا الموضوع حول ثلاث نظريات سوسيولوجية رئيسية تسهم في تفسير أبعاد الظاهرة من زوايا متعددة.

يبدأ الفصل بنظرية المجتمع الشبكي التي طوّرها مانويل كاستلز، والتي تفسر كيف تعيد شبكات الاتصال الرقمي، خاصة مواقع التواصل الاجتماعي، تشكيل العلاقات الاجتماعية والثقافية، مما يجعلها إطاراً مناسباً لفهم كيفية تفاعل المغتربين العرب مع بيئاتهم الجديدة وحفاظهم أو تكيفهم مع هوياتهم الثقافية الأصلية. ثم يتم التطرق إلى نظرية الفعل الاجتماعي لعدد من رواد علم الاجتماع مثل تالكوت بارسونز وماكس فيبر، التي تُستخدم لفهم الدوافع الفردية لاستخدام مواقع التواصل، وكيف يعكس هذا الاستخدام أفعالاً اجتماعية ذات مغزى ترتبط بالانتماء، والتعبير عن الهوية، والتفاعل مع ثقافتين مختلفتين في آنٍ واحد.

كما تسلط نظرية التفاعلية الرمزية الضوء على الكيفية التي يُعيد من خلالها الأفراد المغتربون إنتاج هوياتهم الثقافية عبر التفاعل الرمزي في الفضاء الرقمي، من خلال اللغة، والرموز، والمعاني المتبادلة على منصات التواصل، مما يسهم في تشكيل هوية هجينة أو متعددة الأبعاد.

وبشكل عام، تشكل هذه النظريات الثلاث إطاراً متكاملًا يساعد على تفسير الظاهرة قيد الدراسة من حيث البنية الاجتماعية الرقمية، والسلوك الفردي، والتفاعل الرمزي، مما يعزز من فهم أعمق لتأثير التواصل الرقمي على الهوية الثقافية في سياق الاغتراب.

المبحث الأول

نظرية المجتمع الشبكي

مقدمة

شهد العالم خلال العقود الأخيرة تحولات جذرية في البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، نتيجة للثورة المعلوماتية والتكنولوجية المتسارعة. في هذا السياق، برزت نظرية المجتمع الشبكي التي طوّرها عالم الاجتماع الإسباني مانويل كاستلز Manuel Castells باعتبارها إطارًا تحليليًا لفهم التغيرات العميقة في شكل التنظيم الاجتماعي في العصر الرقمي. وترتكز هذه النظرية على فكرة أن البنية الأساسية للمجتمعات الحديثة لم تعد تعتمد فقط على المؤسسات التقليدية، بل أصبحت تقوم على شبكات مترابطة تديرها المعلومات والتكنولوجيا، وتُعيد تشكيل طرق التواصل والعمل والسلطة والثقافة¹. وفي هذا المجتمع الجديد، تحل الشبكات الرقمية محل الهياكل الهرمية القديمة، مما يؤدي إلى نشوء أنماط جديدة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية تتجاوز حدود الزمان والمكان.

يتناول هذا المبحث نظرية المجتمع الشبكي من حيث مفاهيمها الرئيسية، وأسسها النظرية، وتأثيرها على الواقع المعاصر، مع تسليط الضوء على التحولات التي أحدثتها في فهمنا للهوية، والسياسة، والإنتاج، والتفاعل الاجتماعي.

التعريف العام بالنظرية

تُعدّ نظرية المجتمع الشبكي من النظريات المعاصرة في علم الاجتماع والاتصال، وقد طوّرها مانويل كاستلز، حيث طرح من خلالها تصورًا جديدًا لطبيعة البنية الاجتماعية في ظل تحولات العصر الرقمي، حيث أصبح التنظيم الشبكي هو الشكل المهيمن على مختلف أوجه الحياة الاقتصادية، والسياسية، والثقافية، والاجتماعية. ويشير كاستلز إلى أن المجتمع

¹ تجدر الإشارة إلى أنه قد أطلق على كاستلز لقب "ماركس القرن الحادي والعشرين"، من منطلق أنه إذا كان ماركس هو الذي اكتشف في كتابه المعروف "رأس المال" عن القوانين الأساسية للرأسمالية، وفي مقدمتها نظريته عن فائض القيمة، فإن كاستلز، في نظريته عن المجتمع الشبكي، يقدم تفسيرًا إبداعيًا لأبرز ظواهر العالم الافتراضي. للمزيد أنظر: إدريس الغزواني، مانويل كاستلز ومفهوم مجتمع الشبكات من المجتمع إلى الشبكة: نحو مقارنة تأويلية للهوية والسلطة في عصر المعلومات، دراسة منشورة، مجلة عمران، عدد 9/33، صيف 2020، ص 145.

المعاصر لا تُفهم خصائصه من خلال الهياكل التقليدية فقط، بل يجب النظر إليه بوصفه "مجتمعًا شبكيًا"، تتشكل بنيته الأساسية من خلال شبكات الاتصال الرقمي، التي تسهم في إعادة تشكيل العلاقات الاجتماعية، وإعادة تنظيم القوى والمؤسسات، ونقل السلطة من الأطر المركزية إلى الهياكل الشبكية اللامركزية²، لا سيما وأن الثورة التكنولوجية، وخاصة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، قد أعادت تشكيل البنى الاجتماعية، بحيث أصبحت الشبكات (Networks) هي النموذج المهيمن على التنظيم الاجتماعي بدلاً من الهياكل الهرمية التقليدية³.

وبشكل عام، يرتبط صعود هذا النوع من المجتمعات بثلاث عمليات متداخلة: الثورة التكنولوجية في مجال تكنولوجيا المعلومات، والتحول نحو الاقتصاد المعرفي العالمي، وتزايد أهمية شبكات التواصل في الحياة اليومية. وتؤكد النظرية أن الشبكات الرقمية لا تؤدي إلى تفكيك المجتمع، بل إلى إعادة بنائه ضمن نمط جديد من "الفضاء الشبكي" (Networked space) الذي تتداخل فيه الأبعاد المحلية والعالمية، ويتحول فيه الزمن إلى "زمن بلا زمان" Timeless time، نتيجة للتسارع الرقمي وتقلص الحدود الزمنية في العمليات الاجتماعية⁴.

يؤكد كاستيلز أن العولمة تمثل العامل الأساسي المسؤول عن نشر المجتمع الشبكي على نطاق واسع، حيث تساهم تكنولوجيات الاتصال الحديثة في تعقيد البنى الاجتماعية وتشغيل حالة الشبكة المعقدة. ويرى أن عملية الانتقال من الدولة القومية إلى حالة الشبكة ليست مجرد تحول تقني فحسب، بل هي عملية تنظيمية وسياسية مدفوعة بعوامل متعددة. لذلك، يمكن اعتبار العولمة كوسيلة أو إطار يشير إلى ظهور وانتشار مجتمع الشبكة في العصر الحالي⁵.

السياق التاريخي لنشأة نظرية المجتمع الشبكي

² Castells, M. (1996). The Information Age: Economy, Society and Culture. Volume I. **The rise of the network society**.

³ Castells, M. (2000). Toward a sociology of the network society. Contemporary sociology, 29(5), 693-699.

⁴ Ibid.

⁵ Carnoy, M., & Castells, M. (2001). Globalization, the knowledge society, and the Network State: Poulantzas at the millennium. Global networks, 1(1), 1-18.

ظهرت نظرية المجتمع الشبكي في سياق تاريخي اتسم بتحولات بنيوية عميقة في البنية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للعالم، لا سيما منذ نهايات القرن العشرين. وقد ارتبطت هذه التحولات ارتباطاً وثيقاً بالانتقال من الاقتصاد الصناعي التقليدي إلى ما يُعرف بـ"الاقتصاد المعرفي" أو "اقتصاد المعلومات"، والذي يعتمد على إنتاج المعرفة وتداولها بوصفها المورد الأهم للنمو الاقتصادي والاجتماعي. وقد تزامن هذا التحول مع الثورة التكنولوجية الثالثة، وتحديدًا في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، التي بدأت في السبعينيات وتسارعت بشكل حاد خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات⁶. وقد كان لظهور الحواسيب الشخصية، والإنترنت، والأقمار الصناعية، والهواتف المحمولة، دورٌ حاسم في إعادة تشكيل أنماط التفاعل الاجتماعي والاقتصادي، إذ سمحت هذه التقنيات بإقامة شبكات واسعة وعابرة للحدود، تجمع بين الأفراد والمؤسسات في فضاء رقمي مشترك، متجاوزة القيود الزمانية والمكانية التقليدية. وقد رأى كاستلز في هذه التغيرات تحولاً نوعياً في بنية المجتمع ذاته، وليس مجرد تطور تقني، فطرح مفهوم "المجتمع الشبكي" بوصفه المرحلة التاريخية الجديدة التي تتأسس على منطق الشبكات الرقمية، لا على منطق المركزية الصناعية أو البيروقراطية التقليدية⁷.

كما أن هذا السياق التاريخي تزامن مع التحول النيوليبرالي في الاقتصاد العالمي، وارتفاع النزعة نحو العولمة، والتفكيك المتزايد للدولة القومية في مقابل تنامي دور الفاعلين غير الدوليين (مثل الشركات متعددة الجنسيات، والمؤسسات الرقمية، والحركات الاجتماعية العابرة للقارات). وقد مثلت هذه التحولات بيئة مولدة لنمط اجتماعي جديد، لا تُفهم ملامحه إلا من خلال الشبكات بوصفها النمط التنظيمي المهيمن في هذا العصر⁸.

6 Manuel Castells & Martin Ince, Conversation with Manuel Castells (Cambridge, UK: Polity, 2003).

7 Castells, 2006. Op.Cit.

⁸ مريم زاوي، بناء رأس المال الاجتماعي في المجتمع الشبكي دراسة مسحية على عينة من النساء المستخدمات لموقع الفيسبوك بمنطقة البلدية، أطروحة دكتوراة، جامعة الجزائر، كلية علوم الإعلام والاتصال، الجزائر، 2024.

هنا تجدر الإشارة إلى أن ظهور نظرية المجتمع الشبكي لم يكن وليد التطور التقني وحده، بل جاء أيضاً كرد فعل على قصور النماذج النظرية الكلاسيكية – كالنموذج الصناعي، أو نظريات الحداثة – عن تفسير التعقيدات المتزايدة للعصر الرقمي، مما فتح المجال أمام أطروحات جديدة تتبنى رؤية أكثر مرونة وشبكية للعالم الاجتماعي⁹.

أهمية نظرية المجتمع الشبكي في فهم التحولات الاجتماعية والتكنولوجية المعاصرة

تُعد نظرية المجتمع الشبكي إطاراً تحليلياً بالغ الأهمية لفهم الديناميات الجديدة التي تُشكل المجتمعات المعاصرة، في ظل تسارع التحول الرقمي وانتشار تقنيات الاتصال والمعلومات. فقد وفرت هذه النظرية أدوات مفهومية لفهم كيف أن التكنولوجيا الرقمية لا تُعد مجرد أدوات مادية، بل هي بنى ثقافية واجتماعية تعيد تشكيل أنماط الإنتاج، والتواصل، والعلاقات الاجتماعية¹⁰.

لقد كان من أبرز إسهامات كاستلز والتي تبرز أن الشبكات الرقمية أصبحت البنية التحتية الأساسية للمجتمع، حيث باتت السلطة تُمارَس من خلال التحكم في تدفقات المعلومات، وليس فقط من خلال السيطرة على الموارد أو المؤسسات السياسية. وهذا ما يجعل النظرية مفيدة لفهم صعود الحركات الاجتماعية الجديدة، مثل الاحتجاجات التي تنظم نفسها عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وتغير مفهوم المواطنة من خلال التفاعلات الرقمية العابرة للحدود¹¹.

كما تساعد النظرية في تفسير التحولات في سوق العمل، مثل ظهور "العمالة الشبكية"، والعمل عن بُعد، وتفكك العلاقات التقليدية بين المركز والهامش، حيث يمكن للفرد أن يشارك في الاقتصاد العالمي من أي مكان عبر الاتصال

⁹ خالد المقدادي، ثورة الشبكات الاجتماعية: ماهية مواقع التواصل الاجتماعي وأبعادها التقنية – الاقتصادية – الدينية – السياسية على الوطن العربي والعالم، (الأردن: دار النقاش للنشر والتوزيع، 2013)، وانظر أيضاً: أحمد زايد، عصر المعلومات: جدلية التكنولوجيا والمجتمع (القاهرة: دار المعرفة الجامعية، 2004).

¹⁰ صفاء طلعت مذكور، دور التحول الرقمي في إعادة التشكيل الثقافي للمجتمع – الشباب الجامعي نموذجاً "دراسة ميدانية"، مجلة التربية، كلية التربية بالقاهرة، جامعة الأزهر، عدد 195، جزء 4، يوليو، 2022.

¹¹ Cropf, R. A. (2008). Benkler, Y.(2006). The Wealth of Networks: How Social Production Transforms Markets and Freedom. New Haven and London: Yale University Press. 528 pp. \$40.00 (papercloth). *Social Science Computer Review*, 26(2), 259–261.

بالشبكة. وتُفسر كذلك التغير في أنماط الهوية والانتماء، إذ لم تعد الهوية تعتمد فقط على الانتماء المكاني أو القومي، بل باتت تُصاغ ضمن تفاعلات رقمية عابرة ومتشظية.¹²

وعلى ذلك، فإن أهمية هذه النظرية لا تقتصر على التحليل الأكاديمي، بل تمتد إلى السياسات العامة، والتعليم، والإعلام، وحتى الأمن السيبراني، ما يجعلها أداة فكرية ضرورية لفهم العالم في زمن الحداثة الرقمية أو ما يُسمى أحياناً بـ"الحداثة الثانية".

المفاهيم الأساسية لنظرية الشبكات

تقوم نظرية المجتمع الشبكي على مجموعة من المفاهيم المفتاحية التي تشكّل الإطار التحليلي لفهم طبيعة التحوّلات التي طرأت على البنى الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عصر المعلومات. ومن أبرز هذه المفاهيم:

الشبكة (Network)

هي البنية الأساسية للمجتمع في هذا العصر، وتتكون من عُقد (Nodes) مترابطة، يمكن أن تكون هذه العقد أفراداً أو مؤسسات أو أنظمة معلومات، فالشبكة ليست هرمية كما في المجتمعات التقليدية، بل مرنة وديناميكية، ولذلك فإن ما يميز الشبكات هو الانفتاح والاتصال الدائم وقابلية التوسع. وبشكل عام فإن الشبكة تعني أن العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لم تعد تُنظّم بشكل خطي أو هرمي، بل عبر نقاط مترابطة ومتفاعلة في الزمن الحقيقي¹³.

تدفق المعلومات (Flows)

¹² Castells, 2011. Op.Cit

¹³ مؤمنة شلبي محمود، المجال العام والتحول إلى المجتمع الشبكي قراءة تحليلية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد الثالث، 2022.

تشير إلى حركة البيانات والمعلومات والمعاني عبر الشبكات، ففي المجتمع الشبكي لا ترتبط السلطة والتأثير بالتحكم في الموارد المادية، بل بالقدرة على التحكم في تدفقات المعلومات، وهو ما يشمل تدفق الأخبار، الصور، الرسائل، والرموز التي تنتقل عبر الوسائط الرقمية¹⁴.

وبشكل عام فإن التحكم في التدفقات يعكس مدى القدرة على امتلاك سلطة الثقافة أو سياسية اقتصادية برلم برلم برلم امتلاك سلطة ثقافية أو سياسية أو اقتصادية.

اللامركزية (Decentralization)

من خصائص الشبكات أنها لا تعتمد على مركز ثابت للقيادة أو الإدارة، حيث تتوزع العمليات والقرارات بين مختلف النقاط (العُقد) في الشبكة بما يوفر قدرة أكبر من المرونة، الاستقلالية، والتكيف مع التغيرات، وهو ما يعكس كيف أن المجتمعات الحديثة باتت تتجاوز الهياكل التقليدية المركزية لصالح نماذج أكثر انفتاحًا وتشاركية.

الفضاء الشبكي – الافتراضي (Space of Flows)

هو مفهوم بديل للفضاء الجغرافي التقليدي، يشير إلى الفضاء الذي تُنظَّم فيه الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية عبر الشبكات الرقمية، ولا يرتبط هذا الفضاء بالموقع الفيزيائي بل بـ "تدفق المعلومات" بين العقد المختلفة، حيث يمكن للأفراد أن يكونوا "متصلين" في نفس الفضاء الشبكي رغم تباعدهم الجغرافي¹⁵.

النقد الموجه لنظرية المجتمع الشبكي

¹⁴ إدريس الغزاوي، مرجع سبق ذكره.

¹⁵ صفاء طلعت مذكور، مرجع سبق ذكره.

نظرية المجتمع الشبكي، رغم قوتها التفسيرية وقدرتها على تحليل التحولات الرقمية والاجتماعية المعاصرة، واجهت عدة انتقادات علمية ومنهجية من باحثين في مجالات علم الاجتماع، الإعلام، والدراسات الثقافية. فيما يلي أبرز النقد الموجه للنظرية:

التركيز المفرط على التكنولوجيا

حيث يُؤخذ على مانويل كاستيلز أنه يعطي التكنولوجيا، وبخاصة الشبكات الرقمية، دورًا حتميًا في تشكيل المجتمع، إذ يتم اعتبار التغيير الاجتماعي نتيجة مباشرة للتكنولوجيا، مما قد يُهمل العوامل السياسية، الثقافية، والاقتصادية الأخرى. في حين أن التكنولوجيا لا تعمل في فراغ، بل إن المجتمع نفسه يُعيد تشكيل استخدام التكنولوجيا حسب السياقات المختلفة¹⁶.

تجاهل الفروقات الاجتماعية والثقافية: يلاحظ على مانويل كاستيلز أنه يفترض الجميع يمكنه الاندماج في المجتمع الشبكي، لكنها تُغفل الفوارق الطبقية، الجندرية، العرقية، واللغوية التي تؤثر على قدرة الأفراد على الوصول والمشاركة، حيث لا يمكن لمغترب فقير في دولة نامية استخدام الشبكة بنفس الكفاءة التي يستخدمها مغترب في دولة متقدمة، في حين أن قد تُبسّط الواقع الاجتماعي وتفترض تكافؤًا في الوصول لا وجود له فعليًا.

إغفال دور الدولة والسلطة السياسية: تركيز النظرية على اللامركزية وتفكيك السلطة قد يُهمّش الدور المتواصل للدولة، الحكومات، والقوى التقليدية في تنظيم الفضاء الرقمي، وفي الواقع، الحكومات تفرض رقابة على الإنترنت، وتتحكم بالبنية التحتية الرقمية، وفي هذا نجد أن النظرية قد تجاهلت أن الشبكات الرقمية ليست دائمًا "حرة" أو "تلقائية"، بل كثيرًا ما تُسيطر عليها قوى سياسية واقتصادية.

غموض بعض المفاهيم النظرية: فبجانب ما سبق، يلاحظ أن بعض المفاهيم مثل "الفضاء الشبكي" أو "تدفق المعلومات" تبدو فضفاضة أو مجردة، ويصعب قياسها أو تطبيقها تجريبيًا في بعض الدراسات، وإن كان ذلك يحد من قوة النظرية كأداة تحليل ميدانية، الأمر الذي يعني افتقار النظرية لبعض الدقة المنهجية، مما يجعل من الصعب اختبارها علميًا.

¹⁶ Manuel Castells & Martin Ince, Conversation with Manuel Castells (Cambridge, UK: Polity, 2003).

المبحث الثاني

نظرية الفعل الاجتماعي

نظرية الفعل الاجتماعي هي حجر الأساس في فكر تالكوت بارسونز (Talcott Parsons)، الذي أحد أبرز رواد علم الاجتماع في القرن العشرين. وتهدف هذه النظرية إلى تفسير كيف يتصرف الأفراد داخل المجتمع في ظل القيم والمعايير الاجتماعية، وكيف تُسهم أفعالهم في استقرار النظام الاجتماعي. وتنطلق هذه النظرية من فرضة أن الفعل الاجتماعي ليس عشوائيًا، بل هو، مقصود (هادف)، وأنه يحدث في سياق اجتماعي محدد، كما أنه يسترشد بالقيم والمعايير الثقافية، وفي الوقت ذاته يؤدي دورًا في المحافظة على توازن المجتمع.

يذهب رواد نظرية الفعل الاجتماعي مثل تالكوت بارسونز وبيرك ومالينوفسكي وهيربرت ميد إلى أن دراسة الفعل الرمزي يعد ضرورة لنمو وتطور النظرية الوظيفية الاجتماعية، إذ لا يمكن استبعاد الأعمال والأشكال الفنية والثقافية عند دراسة المجتمع. وفي إطار هذه النظرية يحدد بارسونز ثلاثة جوانب أساسية رئيسية وهي¹⁷:

➤ النسق الاجتماعي

➤ انساق شخصية الفاعلين الرمزيين

➤ النسق الثقافي الذي هو عبارة عن النسق الرمزي الذي يدخل في فعل الأفراد

ويمكن النظر إلى كل من هذه الجوانب الثلاثة باعتباره عنصر مستقل وضرورية في عملية التنظيم والاتساق مع العناصر الأخرى. أي أن كل عنصر يكون ضروريًا بالنسبة للعناصر الأخرى، بمعنى أنه بدون الشخصية والثقافة أو الرمز سوف لا يكون هناك نسق اجتماعي¹⁸. وفي هذا، يرى بارسونز أن الفعل الاجتماعي يتسم بالعقلانية والحرية داخل حدود

¹⁷ زينة جسام محمد، التحليلي الاجتماعي للرموز، نظرية الفعل الاجتماعي، دراسة منشورة، الجامعة المستنصرية، العراق، (2020)

¹⁸ Tony Lawson, Social positioning theory, *Cambridge Journal of Economics*, Volume 46, Issue 1, January 2022, Pages 1–39, <https://doi.org/10.1093/cje/beab040>

السياق الاجتماعي والثقافي، ذلك أن الفاعل يمتلك قدرًا من الحرية لاختيار وسائله بناءً على قيم ومعايير مجتمعه، لكنه غير مطلق الحرية؛ فالسياق يفرض قيودًا عليه¹⁹.

وبشكل عام، يستخدم بارسونز الفعل ليشير إلى عملية نسق علاقة الفاعل بالموقف، والتي يكون لها دلالة دافعية للفاعل الفردي، أو بالنسبة للجتماعية لأفرادها المؤلفين لها. وهو ما يعني أن عمليات الفعل تنطبق على تحقيق الإرضاءات أو تحاشي الحرمان بالنسبة للفاعل. والسمة الجوهرية للفعل تتمثل في أنه لا يتألف فقط من الاستجابة لمثير موقفي معين، بل إن الفاعل يطو رنسقا من التوقعات بالنسبة للموضوعات المختلفة والمتعددة من الموقف.

ويمكن تتبع الأفكار الأولية حول الفعل الاجتماعي عند إميل دور كايم الذي يستخدم تركيبات روائية في تحليله للشعيرة بما تتضمنه من رموز على أساس أنها مثال أو نموذج للفعل الاجتماعي. بل نجد أن راد كلف براون في دراسته لجزر الاندمان يقول إن العالم هو بمثابة خشبة المسرح التي يلعب عليها الفرد المسرحية الاجتماعية. ولا يمكن أن نغفل دراسة مالينوفسكي لمشكلة المعنى في اللغة الابتدائية حيث أشار إلى اللغة من حيث هي نمط من الفعل بدلا من كونها وعاء للفكر.

المفاهيم الأساسية للنظرية

مفهوم الفعل الاجتماعي

هو جزء من الإصلاح الاجتماعي الذي يمكن للأخصائيين الاجتماعيين القيام به في حدود مهنتهم والعمل الاجتماعي الذي يقوم به الأخصائيون كي يساهموا في العمل تغير الظروف البيئية وتهدف إلى استشارة الرأي العام للمطالبة بأهداف اجتماعية. وبذلك يكون الفعل الاجتماعي بمثابة مجموعة من الأنشطة الاجتماعية يقوم بها الفرد أو الجماعة يمكن من خلاله تكوين علاقات اجتماعية عن طريق تفاعل الفرد مع الغير أو مع البيئة الاجتماعية التي ينتمي إليها، وعليه فالفعل الاجتماعي هو عملية اجتماعية ترتبط بالهوية الاجتماعية والثقافية للأفراد وتخضع لمختلف عمليات التغير الاجتماعي.

مفهوم الفعل التطوعي

¹⁹ Parsons, Talcott and Robert F. Bales, *Family, Socialization and Interaction Process*, Glencoe, Illinois, Free Press, 1955. HQ734 P3

هو ما تبرع به الإنسان من ذات نفسه مما لا يلزمه فرض وقد جاء في لسان العرب لابن منظور أمثلة: جاء طائعا غير مكره ولتفعله طوعا أو كرها. كما أن العمل التطوعي ظاهرة اجتماعية صحية تحقق الترابط والتآلف والتآخي بين أفراد المجتمع²⁰.

المجتمع المحلي

هو جماعة من الناس تقطن على بقعة جغرافية معينة تزاوّل نشاطات اقتصادية وسياسية ذات مصلحة مشتركة ولهما تنظيم اجتماعي وإداري يحدد طبيعة حكمها كما أن لها قيما ومصالح و شعورا وأهدافا متبادلة ومن أمثلة المجتمعات المحلية المدينة، القضاء، القرية، كما أن من أهم شروط تكوين المجتمع المحلي وجود أهداف مشتركة التي يسعى إلى تحقيقها أبناء المجتمع والعوامل التي ساعدت على ظهور المجتمعات المحلية، سرعة الانتقال الجغرافي في المجتمعات الصناعية انتشار الأخبار والمعلومات من خلال وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية وأول من استعمل اصطلاح المجتمع المحلي العالم الاجتماعي روبرت مكايفر عندما شرح كتابه "المجتمع المحلي" في عام 1981.

مفهوم التغير الاجتماعي

تدل كلمة تغير في اللغة العربية على التبدل والتحول، فتغير الشيء هو تحوله وتبدله، ويعد التغير الثقافي أعم من التغير الاجتماعي ذلك أن التغير الثقافي يشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة كما تشمل الحقوق الأساسية ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات التي تجعل منها كائنات تتميز بالإنسانية. وبالتالي فإن التغير الاجتماعي يعبر عن تحول رئيس في البنية الاجتماعية وهو عملية اجتماعية ملازمة للمجتمعات، ويعني التغير في النظم والأنساق الاجتماعية في طبيعة البناء الاجتماعي²¹.

النقد الموجه للنظرية

²⁰ دينيكن ميتشيل، معجم علم الاجتماعي، ترجمة أسان محمد الحسن، (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1981)، ص 13.

²¹ أحمد بن نعمان، الهوية الوطنية، (دار الأمة، 2008)، ص 27. وانظر أيضا: عديلة أمال، الفعل التطوعي في ظل التغير الاجتماعي في الجزائر، دراسة ميدانية لبعض مناطق مدينة الأغواط، مذكرة ماجستير، (الجزائر: جامعة قاصدي مرباح - ورقلة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011)، ص 23.

واجهت نظرية الفعل الاجتماعي كثيراً من الانتقادات التي ركزت حول تفريغ المحتوى الثقافي والفكري ورد الرموز المؤلفة له إلى مجرد وسائل وأدوات تفريغ المحتوى الثقافي والفكري، ورد الرموز المؤلفة له إلى مجرد وسائل وأدوات وظيفتها الجوهرية تكمن في تأسيس الفعل الاجتماعي للأفراد والحفاظ على استمراريته.

إن نظرية الفعل الاجتماعي في شكلها الأخير والتي أسسها بارسونز هي في الواقع نظرية عن النسق الاجتماعي بمعناه الوظيفي والذي يختفي فيها الفرد تماماً، إذ لا نجد إشارة واضحة عن السلوك الفعلي للأفراد أو أفعالهم ومدى تأثيرهم بالأنساق الرمزية، بل على العكس نجد تجريدات وتعميمات حول خصائصهم ووظائف الأنساق الاجتماعية بصورة أدبجت مفهوم الفرد ذاته ضمن مفهوم النسق.

المبحث الثالث

نظرية التفاعلية الرمزية

تعتبر النظرية التفاعلية الرمزية واحدة من أهم الاجتهادات النظرية الحديثة التي تسهم في توفير أساسا نظريا لكثير من الأبحاث المتخصصة في العلوم الاجتماعية، حيث تقوم هذه النظرية على أساس مبدأ مركزي يتجسد في أن العالم هو بناء اجتماعي ينتج عن طريق التفاعل الاجتماعي اليومي. وتركز النظرية على كيفية الاستخدام والتعامل اليومي مع الأشياء وكذا تفسيرها كرموز للتواصل المتبادل بين أفراد المجتمع، وكيف يتم خلق الذات والحفاظ عليها، وكذا الحفاظ على الواقع الاجتماعي²².

وقد ظهرت نظرية التفاعلية الرمزية في بداية الثلاثينات من القرن العشرين على يد العالم الأمريكي جورج هربيرت ميد ، حيث صاغ مصطلح التفاعل الرمزي وحددة مقوماته على النحو التالي²³:

- يعتبر المجتمع نظاما للمعاني والرموز تعد جزءا من النشاط الإنساني
- من خلال التفاعل الرمزي بين الناس يتم بناء الحقائق عليها في المجتمع
- يعتبر السلوك الإنساني حيال المواقف عبارة عن بناء شخصية عن الذات وعن الآخرين في المجتمع
- إن البشر يتصرفون تجاه الأشياء على أساس ما تعنيه تلك الأشياء لهم
- إن المعاني هي نتائج التفاعل الإعلامي في المجتمع الإنساني وهذه المعاني تحول وتعدل وتداول عبر عملية فهم وتأويل يستخدمها كل فرد في تعامله مع الإشارات التي يواجهها
- يتفاعل الأفراد مع الأشياء بناء على المعاني التي ينسبونها إلى تلك الأشياء
- تتشكل هذه المعاني من خلال تفاعلاتنا مع الآخرين والمجتمع.

²²لعبي هدى، جري عادل (2020)، أثر مواقع التواصل الاجتماعي على الهوية الثقافية لدى الطلبة الجامعيين، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد الصديق، الجزائر.

²³ يونس الحياتي (2022)، نظريات السوسيولوجيا المعاصرة، دراسة منشورة، جامعة ابن طفيل، الجزائر.

➤ يتم تاويل معاني الأشياء من قبل الشخص عند التعامل مع الأشياء في وضعيات معينة.

وينطوي مصطلح التفاعل الرمزي على شقين فاعلين، الأول هو عملية التفاعل والتي هي الفعل الاجتماعي التي هي النظام الرمزي، والأصل اللغوي لكلمة نظا. وتتجلى قيمة النظام الرمزي في تحقيق تواصل إنساني ويعتبر ليفي شتراس الثقافة مجموعة من المنظومات الرمزية التي تحتل المرتبة الأولى فيها: اللغة، الفن، الدين والعلم²⁴. ويقابل عملية التفاعل الرمزي فهم الرمز وهذا يعتمد على عملية ذهنية مرهونة بنشاط العقل ومخزونه المعرفي من المعاني والتصورات والمعتقدات. ويعتبر أول من أطلق مصطلح التفاعل الرمزي هو العالم هيربرت بلومر وكان يعني فيه:

"إن الفعل الاجتماعي التوجه للحصول على استجابة من آخرين يؤدي إلى عملية التفاعل وهذا يعتمد على الخاصية الرمزية للعقل ضمن إطار عملية التفاعل والاتصال. والمتفاعلون لا يتبعون وصفات اجتماعية ثقافية ثابتة، إنما يولون معنى العقل والرمز ولهذا لا تعتبر العملية الاجتماعية والعلاقات ونواتجها من بناءات اجتماعية ثقافية كأشياء ثابتة، إنما عمليات ديناميكية متغيرة ومفتوحة.

والتفاعلية الرمزية تعتبر شكلا أو وجها من أوجه سوسيولوجيا الفهم، وهي تنتمي إلى السوسيولوجيا الأمريكي، حيث ركزت هذه النظرية المعاصرة على قضايا ومشكلات معقدة تتمثل في دراسة السلوك والتفاعل، والمواقف الاجتماعي والجماعات الصغرى والفرد، والمواقف والانفعالات، وغير ذلك من مشكلات متعددة. أو يمكن القول أن التفاعلية الرمزية هي عملية التفاعل الاجتماعي التي يكون فيها الفرد على علاقة اتصال بعقول الآخرين، وحاجاتهم، ورغباتهم الكامنة، وتعتبر التفاعلية الرمزية عن ذلك التفاعل الذي يحدث بين مختلف العقول التي تميز المجتمعات الإنسانية، وهي تركز على مبدئين هامين إذ تهتم بوحدة التحليل (التفاعل) وتعتمد على الرموز والمعاني، أي أن العلاقات الاجتماعية ما بين الأفراد في المجتمع هي نتاج للمرور والمعاني²⁵.

مبادئ النظرية التفاعلية الرمزية

²⁴ دوني كوش، ترجمة قاسم المقداد، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب، 2002)، ص 214.

²⁵ عبد الله محمد عبد الرحمن، النظرية في علم الاجتماعي: النظرية السوسيولوجية المعاصرة، (القاهرة: دار المعرفة الجامعية، 2006)، ص 166.

ترتكز النظرية التفاعلية الرمزية على مبادئ عدة نوجزها فيما يلي²⁶:

1. يدخل الأفراد في علاقات بعضهم مع بعض لمدة قد تكون قصيرة أو طويلة.
2. تكون هذه العلاقات في الجماعات الصغيرة أو متوسطة الحجم إذ يتعرف كل فرد على الفرد الآخر.
3. بعد تكوين العلاقة، يبدأ بتقييم الفرد الآخر، والتقييم قد يكون إيجابيا أو سلبيا بناء على الصورة الذهنية التي كونها الفرد نحو زميله في أثناء عملية الاختلاط والتفاعل.
4. عاجلاً أو آجلاً يصل تقييم الجماعة للفرد المعني أو المقصود بالتقييم عبر عملية الاتصال والتفاعل.
5. إذا كان تقييم الجماعة للفرد إيجابيا، فإن الفرد يقيم نفسه أو ذاته إيجابيا، في حين إذا كان تقييم الجماعة للفرد سلبيا فإن الفرد بدوره يقيم نفسه تقييما سلبيا. إذاً تقييم الفرد لذاته إنما يعتمد تقييم الجماعة أو المجتمع له.
6. عند تكوين الصورة الانطباعية عن الفرد تلتصق هذه الصورة عن الفرد بمجرد مشاهدته أو السماع عنه أو التحدث إليه من دون التأكد من صحة المعلومات أو الخبر أو الحادث، لأن الشخص أو الفرد اعتبر الفرد الآخر رمزا، والرمز هو الذي يحدد طبيعة التفاعل، مع أن الصورة الرمزية قد يكون الفرد عن الآخر قد تكون إيجابية أو سلبية اعتمادا على الانطباع أو الصورة الذهنية التي كونها عنه.

إنطلاقا من ذلك، يرى هيربرت ميد أن البشر يعتمدون رموزا وتفاهات مشتركة في تفاعل بعضهم مع بعض. ولأن البشر يعيشون في عالم يزخر بالرموز، فإن جميع عمليات التفاعل بين الأفراد تشتمل على تبادل تلك الرموز²⁷.

وقد تطورت التفاعلية الرمزية في الإعلام، حيث ترجع جذورها إلى التوجهات الاجتماعية السلوكية والتوجهات الاجتماعية النفسية التي تنبأها مجموعة من العلماء الغربيين. وفي إطار نظرية التفاعلية الرمزية، يتم تحليل المجتمع من خلال المعاني التي يعطيها الناس للأشياء والأحداث والأفعال، على اعتبار أن الناس يتصرفون وفقا للمعاني التي يعطونها للعالم بدلا من الحقيقة الموضوعية. علما بأن هذه المعاني ليست سوى تأويلات، وبالتالي تشير النظرية إلى أن المجتمع يقوم على تأويلات الناس. وعند تكوين الصورة الانطباعية عن الفرد فإنها تلتصق بمجرد مشاهدته أو السماح عنه أو التحدث إليه

بن تامي رضا، قادة بن عبد الله نوال، نظريات في خدمة العلوم الاجتماعية قراءة في دور نظرية التفاعلية الرمزية، مجلة منيرفا، مجلد 4، عدد 26
1، ديسمبر، 2017.

Blumer, Herbert (1989) Symbolic Interactionism: Perspective and Method Englewood, ²⁷
Prentice-Hall.

من دون التأكد من صحة المعلومات لأن الشخص اعتبر الفرد الآخر رمزا، والرمز هو الذي يحدد طبيعة التفاعل. وتتحدد هذه الأفعال الاجتماعية من خلال التفاعل وتقديرات المواقف التي تواجه الأفراد وعلى أساس أن الفعل الإعلامي يتضمن الذات والدور الذي يشغله الفرد في تلك الفترة الزمنية. والتفاعل هنا هو أساس ديناميكية المجتمعات، وتعد المعلومات المتاحة عن الفرد والموقف وتوقعات الدور المحدد في تنظيم المجتمع هي محور هذا التفاعل.

وحدات تحليل التفاعلية الرمزية

يتم التحليل عن طريق استخدام النظرية التفاعلية الرمزية من خلال وحدات وهي:

التفاعل

إن التفاعلية على الرغم من أخذها للفرد كقاعدة في مقارنة الوقائع، والظواهر الاجتماعية، إلا أنها لا تأخذه كمبدأ في التحليل، بل إنها على مستوى التحليل تأخذ الفرد في فعله المتبادل مع الآخرين. كما أن التفاعل هو حقل للتأثير المتبادل لأن الاجتماعي لا يوجد كمعطى سابق عن الأفراد الفاعلية، بل إن الاجتماعي حسب "جورج زميل" هو شكل مستمر، أو أنه حسب "شتراوس" نظام متفاوض عليه. والتفاعل لا يتم من خلال اللغة والخطاب فقط، بل يتعلق كذلك برمزية الحركات الجسدية المرافقة للكلام أو بدونه وحسب "جوقمان"، لو استطاع الفاعل التوقف عن الكلام فإنه لا يستطيع أبدا التوقف عن التواصل عبر لهجة الجسد²⁸.

الأنا

لقد شغل الأنا التفكير السوسيولوجي الأمريكي منذ البراغماتيين والتحليلات السوسيولوجية "جورد هربرت ميد"، ويعتبر الأنا حجر الزاوية بالنسبة للسوسيولوجيين التفاعليين في بناء نظريتهم، فالأنا يبين اجتماعيا وهو نتاج التاريخ الشخصي المتسم بكل الوضعيات والمواقف والأدوار المختلفة التي مر منها في حياته.

الرموز

²⁸ بسام عبد الرحمن، نظريات الإعلام، (الأردن: دار أسامة للنشر والتوزيع، 2011).

وهي مجموعة من الإشارات المصطنعة التي يستخدمها الناس فيما بينهم لتسهيل عملية التواصل، وهي سمة خاصة في الإنسان وتشمل عند "جورج ميد" اللغة، وعند "بلومر" المعاني وعند "جوفمان" الانطباعات والصور الذهنية.

الوعي الذاتي

وهو مقدرة الإنسان على تمثل الدور فالتوقعات التي تكون لدى الآخرين عن سلوكنا في ظروف معينة، هي بمثابة نصوص يجب أن نعيها حتى نمثلها على حد تعبير "جوفمان".

التحلل الاجتماعي

ويعني عدم خضوع الأفراد في تفاعلهم الاجتماعي إلى ضوابط، ومعايير اجتماعية خاصة بالمجتمع كالقيم والأعراف.

التنظيم الاجتماعي

بمعنى خضوع تفاعلات الأفراد إلى ضوابط ومعايير المجتمع الخاصة به كالقيم والأعراف والتنشئة

التنشئة الاجتماعية

هي عملية تلقين وتعليم أفراد المجتمع الواحد منذ الصغر اللغة والعادات والنظم والقيم الاجتماعية المتبعة في ذلك المجتمع. وتبدأ هذه العملية منذ ولادة الطفل، وتتم وظيفة التنشئة عندما يصبح الطفل مواطناً نافعا في المجتمع الذي ينتمي إليه وتستمر بصورة ضعيفة بعد ذلك، وتلازم الإنسان حتى آخر أيام حياته²⁹.

بشكل عام، أكدت التفاعلية الرمزية على التفاعل الرمزي وصححت المنظورات الأخرى كالوظيفة والصراع. كما أن مفهومات نظرية التفاعلية أكثر شمولاً من الأنماط المحددة للتفاعل التي تهتم بها منظورات أخرى. كما يمكن استخدام مفهومات التفاعل الرمزي لتشمل مدى واسع من العلاقات الإنسانية مثل الصراع والتعاون، والخضوع. فقد سعت التفاعلية الرمزية لتغير طبيعة القضايا والمشكلات التي تعالجها النظرية السوسيولوجية وذلك عن طريق نقطتين أساسيتين³⁰:

²⁹ مجموعة مؤلفين، معجم العلوم الإنسانية، ترجمة جورج كتورة، (بيروت: المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، 2009)

³⁰ نجاح موسى مولى، نظرية التفاعلية الرمزية، مجلة الأدب، عدد 150، سبتمبر، 2024.

أولاً. التركيز على عدد من المشكلات والقضايا ودراستها بصورة مركزة مثل الجماعة، والذات، والتفاعل، والتبادل، وهذا ما نتج عنه ما يسمى بمدخل الوحدات التحليلية الصغرة.

ثانياً. توجيه اهتمام الباحثين والمهتمين بعلم الاجتماع لضرورة تحديث مناهج البحث السوسيولوجي ممثلة في استخدام المناهج الكيفية التي ي

عتمد عليها علماء النفس مثل الاستبطان، والاستقراء، والاعتماد على العديد من أدوات البحث الاجتماعي وطرقه المنهجية المختلفة.

النقد الموجه للتفاعلية الرمزية

رغم أهمية النظرية التفاعلية الرمزية وإثرائها لمجال النظرية السوسيولوجية المعاصرة، إلا أنها تعرضت أيضاً للعديد من الانتقادات وهي:

➤ يرى البعض أن التفاعلية الرمزية كنظرية سوسيولوجية قد تخلت كثيراً عن استخدام الأساليب العلمية التقليدية، وخاصة لأن أصحابها اعتبروا أن مضمون اهتماماتهم وقضاياهم التي ترتبط بالذات أو الوعي تتصف بالدراسات المتنوعة التي يصعب عليهم استخدام الأساليب الكمية، والتي يمكن أن تساعد عمليات الترميز، والتصنيف، أو حتى الحصر على أرقام محددة.

➤ ظهور العديد من التحليلات والتصورات الغامضة وهذا ما جعل العديد من القضايا والمسلمات غير قابلة للاختيار مما أدى لعدم الوصول إلى القوانين والتعميمات العامة حول التفاعلية الرمزية.

➤ إهمال التفاعلية الرمزية في معظم تحليلاتها لدراسة الأبنية الكبرى، وهذا ما جعلها غير قادرة على التنبؤ خاصة في القضايا التي حاولت معالجتها بصورة نظرية وميدانية واقعية في نفس الوقت.

➤ أكدت التفاعلية الرمزية على أن المجتمع تفاعل رمزي دون أن تشير إلى أنماط الظروف مهما كان نوع التفاعل الذي يؤدي إلى ظهور وانبثاق أي نمط من أنماط بناء اجتماعي، واستمراره.

➤ جعلت من الشخصية أو الذات محور دراستها، وجذبت انتباه الباحثين إلى دراسة التفاصيل الصغيرة في الحياة الاجتماعية وبذلك تكون قد استبعدت النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي من مجال الدراسة³¹.

➤ إخفاق التفاعلية الرمزية في تحليل الكثير من المفهومات والتصورات والعوامل السيكلوجية، إن لم تكن قد أهملتها تماماً ومن أهم هذه المفهومات: الحاجات، الدوافع، التوتر، والإلهام.

بشكل عام، يمكن القول أن التفاعلية الرمزية تقدم إضاءة قيمة على عالم العلاقات الاجتماعية والتواصل. فاستنتاجاتها من خلال أهمية الرموز في بناء المعاني والهويات الاجتماعية، وتوفير رؤية عميقة حول كيفية تكوين الثقافة وتأثيرها في العلاقات البيئية، وبالتالي فإن هذه النظرية تسلط الضوء على أهمية اللغة والرموز في تحليل السلوك الاجتماعي وتفسير الخبرات الإنسانية، مما يساهم في تطوير فهمنا للتفاعلات الاجتماعية المعقدة والمتنوعة.

خاتمة الفصل

من خلال المباحث الثلاثة يتضح أن النظريات الثلاث التي تم تناولها هذا الفصل، وهي نظرية المجتمع الشبكي، ونظرية الفعل الاجتماعي، ونظرية التفاعلية الرمزية، وفر أساساً نظرياً متيناً لفهم الظواهر المرتبطة باستخدام مواقع التواصل الاجتماعي وتأثيرها على الهوية الثقافية للمغتربين العرب في المملكة العربية السعودية. فمن خلال نظرية المجتمع الشبكي، يمكن تفسير التحولات في أنماط التواصل والانتماء الثقافي التي تفرضها بيئة رقمية عالمية عابرة للحدود. أما نظرية الفعل الاجتماعي، فتتيح فهم الدوافع الفردية والاجتماعية وراء استخدام المغتربين لهذه المنصات، وكيف ترتبط تلك الأفعال بسعيهم للحفاظ على هويتهم أو إعادة تشكيلها. بينما تساهم نظرية التفاعلية الرمزية في كشف آليات بناء المعاني الثقافية من خلال التفاعل اليومي في الفضاء الرقمي، مما يساعد على فهم كيف تتشكل الهويات أو تتغير بفعل هذا التفاعل المستمر. وبذلك، تُعد هذه الإسهامات النظرية ضرورية لتفسير وتحليل العلاقة المعقدة بين الاستخدام اليومي لمواقع التواصل الاجتماعي والتحولات التي قد تطرأ على الهوية الثقافية لدى الأفراد في سياق الاغتراب، وهو ما سيتم بحثه بصورة أعمق في الفصول التالية من هذه الدراسة.

³¹ أيان كريب، ترجمة محمد حسين غلوم، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، (الكويت: المجلس الأعلى للثقافة والأدب الكويتي، سلسلة عالم المعرفة، 1990).